

محاضرة

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

[الرعد]

فضيلة الشيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله تعالى

النسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد، أيها الإخوة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

حديثنا أيها الإخوة حديث عن ذكر الله - جل وعلا - وعن قوله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد].

فذكر الله له شأنٌ عظيمٌ، وأثرٌ كبيرٌ، ومنافع عديدة لا تحصى.

ذكر الله - جل وعلا - طمأنينة للقلوب، وراحةٌ للنفوس، وهدوء للبال، وسكون للقلب.

ذكر الله - جل وعلا - جلابٌ للنعم، دافعٌ للنقم.

ذكر الله - جل وعلا - فيه سعادة العبد وفلاحه، وفوزه في الدنيا والآخرة.

وكلما كان العبد ذا عناية بالذكر ومحافظة عليه كلما كان ذلك أكمل له في تحقيق سعادته ونيل فلاحه في الدنيا والآخرة. فعندما قال الله - جل وعلا: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي فيحصل لها الطمأنينة بذلك والسكون والراحة.

عندما نتأمل هذا النص الكريم وننظر إلى واقع الناس وواقع القلوب في هذه الحياة نجد أنها يدخل عليها أمور كثيرة وتتجاذبها أهواء عديدة وتتخطفها شبه وشهوات وفتن وأهواء، فلا يستقر القلب ولا يطمئن ولا يسكن؛ بل يكون تائها متشتتاً متشرّداً متضجّراً متململاً.. هذه أحوال تكون في القلب تكثر وتقلّ، تكون في قلوب الناس، وكلها يجمعها وصف عدم الطمأنينة، هذه الأحوال التي تتاب القلوب يجمعها وصف عدم الطمأنينة أي أنها قلق، ضجرة، متململة، تائهة، فيها شكوك وشبهات، يجمعها هذا الوصف عدم الطمأنينة، وهذه الأشياء كلها أمراض تتاب القلب.

والقلب لا يحصل له سكونه ولا تتحقق له طمأنينته إلا بذكر الله، لا بذكر آخر، فإذا عمّر القلب بذكر الله اطمأن، وإذا غفل القلب عن ذكر الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - دخلته تلك الأمور.

والناس في ذلك بين ومقلٌ ومستكثر، ولهذا قال الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ بذكره تَبَارَكَ وَتَعَالَى بشيء آخر ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، فطمأنينة القلوب وهو راحتها وسكونها وأنسها واستقرارها وزوال القلق والضجر عنها كل ذلك إنما يكون بذكر الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وعلى هذا فذكر الله حياة للقلب، يحيا به القلب حياة حقيقية، حياة مطمئنة، حياة ساكنة، حياة عامرة بالأنس والراحة والطمأنينة، وبدون ذكر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يموت القلب.

ولهذا جاء في «الصَّحِيحِينَ» من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»^(١)، فشبهه -صلوات الله وسلامه عليه- الذَّاكر لله بالحي، وشبهه الغافل عن ذكر الله بالميت.

وفي لفظ آخر للحديث في «صحيح مسلم»^(٢) يقول ﷺ: «مثل البيت الذي يُذكر فيه الله مثل الحي، والبيت الذي لا يُذكر فيه الله مثل الميت»، فشبهه -صلوات الله وسلامه عليه- بيوت الذاكرين لله ببيوت الأحياء، وبيوت الغافلين عن ذكر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ببيوت الأموات التي هي القبور.

وإذا جمعنا بين لفظي الحديث نجد أنَّ في ذلك تشبيها للذاكرين الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- الذين يعمرُونَ بيوتهم بذكر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فيه تشبيه لهؤلاء بالحي الذي يسكن في بيوت الأحياء.

والقسم الآخر الذي لا يذكر الله، الغافل عن ذكر الله، الذي لا يُذكر في بيته الله -جل وعلا-، فمثل من كان هذا شأنه كالميت في بيوت الأموات، وكأنَّ صدره أصبح مقبرة لقلبه، دُفن قلبه في صدره، لا حياة فيه الحياة الحقيقية، وإن كان يحيا حياةً بهيمية، أما الحياة الحقيقية قد ذهبت عنه، وأصبح قلبه مدفوناً في صدره، فهم أموات وأجسادهم أصبحت بمثابة المقابر لقلوبهم لأنهم لا يذكرون الله.

وهذا كله مستفاد من حديث النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»، والرواية الأخرى للحديث قال: «مثل البيت الذي يُذكر فيه الله والبيت الذي لا يُذكر فيه الله كمثل الحي والميت».

ونستفيد من هذا أنَّ قلوب الناس أقسام، فمن أقسام القلوب:

القلب السليم: فهناك قلب سليم ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء]، وهو الذي سلم من الآفات، وسلم من أن يخالطه قصد غير الله، وخلص القلب لله وصفى ما فيه من أعمال، صار لا يقصد إلا الله، ولا يلجأ إلا لله، ولا يعتمد إلا على الله، ولا يتوكل إلا على الله، ولا يصرف شيئاً من العبادة إلا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إذا أحبَّ أحب في الله، وإذا أبغض أبغض في الله، وإذا والى والى في الله، وإذا عادى عادى في الله، فعمله كله لله وفي الله، قلبٌ حي، قلب سليم، هذا شأنه في كل أوقاته، لا يُدخله آفات

(١) البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، حديث رقم (٦٤٠٧).

(٢) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد....، حديث رقم (٧٧٩).

القلوب، ولا يخالطه ما يخالط القلوب من الأمراض والشبهات والشهوات، كل ذلك هو مُعرض عنه، مُقبلٌ على ربه، ذاكِرٌ لربه - جل وعلا -، ملتفتٌ إليه، ليس ملتفتاً إلى من سواه.

وهناك قسم ثانٍ من القلوب: وهو القلب الميت، وهو ذلك القلب الذي انصرف عن خالقه وموجده ﷻ، وأقبل على من سواه، لا يلتفت إلى طاعة إلهه، ولا يقبل على عبادة الله، ولا ينشرح لذكر الله، ولا يعتني بالقيام بأوامر الله، ويتَّجه إلى غير الله - تبارك وتعالى - في خوفه ورجائه ورغبه ورهبه وحبه وبغضه، فأصبح ملتفتاً إلى غير الله - تبارك وتعالى - صارفاً أعماله وطاعته لغيره، فهذا قلبٌ مات، قلب مات في صدر صاحبه، إذا سأل لا يسأل الله، وإذا استعان لا يستعين بالله، وإذا توكل لا يتوكل على الله، قلبٌ ميت، فهذا قسم.

وهناك قسمٌ ثالث من أقسام القلوب: وهو القلب الذي به حياةٌ من جهة ومرضٌ من جهة أخرى، حياة من جهة إخلاصه لله وتوحيده له ورغبته في عبادته ونحو ذلك، ومرض من جهة بعض الشبهات والشهوات التي داخلت قلبه وخالطت فؤاده، وهذا شأنه لمن غلب من القسمين.

هذا التقسيم الذي ذكره أهل العلم للقلوب ينبغي أن نُفيد منه إفادة عظيمة في موضوعنا الذي نتحدث عنه وهو طمأنينة القلب وتحقيق حياته بذكر الله - تبارك وتعالى.

فهذا الموت الذي أشرنا إليه في القسم الثاني والمرض الذي أشرنا في القسم الثالث الذي يتتاب القلوب زواله وذهابه وانصرافه عن الإنسان إنما يكون إذا أقبل الإنسان على الله - تبارك وتعالى - وأقبل على ذكر الله بقلبه ولسانه، فإذا زاد من الذكر زادت فيه الحياة، ودب في قلبه الخير، وتنامى فيه الصلاح، وانصرفت عنه الشبهات والشهوات، وإذا غفل عن ذلك داخله المرض وخالطته الشرور ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد] تطمئن بأي شيء؟ بصلتها لربها، واعتمادها على خالقها، ولجوؤها إليه ﷻ دون من سواه، من كان هذا شأنه: لا يرجو إلا الله، ولا يطمع إلا فيما عند الله، ولا يخاف إلا الله، ولا يتوكل إلا على الله، ولا يعتمد في شؤونه كلها إلا على الله؛ مطمئن القلب، الصَّجر الذي يتتاب الناس والهم والغم الذي يخالط قلوبهم لا يجد سبيلاً إلى قلبه؛ لأنه مطمئن بذكره لله، بتوحيده لربه، بإقباله على سيده ومولاه ﷻ.

وتأملوا معي - أيها الأخوة - علاج النبي ﷺ لمن أصاب قلبه هم أو غم أو حزن، حتى نعرف من خلال هذا العلاج الذي أرشد إليه النبي - عليه الصلاة والسلام - قيمة ذكر الله، قيمة ذكر العبد لله - تبارك وتعالى - وصلته به سبحانه، وكلنا يعلم أن الناس ينتابهم الهم والغم والحزن، يهتم الإنسان وتجد قلبه

غير مطمئن عندما يصيبه الهم أو الغم أو الحزن، وهذه الأمور الثلاثة - كما نبه أهل العلم - أمراض تدخل على القلب، الهم والغم والحزن، واحد منها يتعلّق بالماضي؛ بالشيء الذي مضى، وواحد منها متعلّق بحال الإنسان ووقته، وواحد منها يتعلّق بما يُستقبل.

فالحزن يتعلّق بما مضى، أمور مضت وفاتت فيحزن على فواتها أو عدم تحققها له، شخص دخل في تجارة فلم يربح، أراد أمرًا معينًا فلم يتحقق له، فيبدأ قلبه يحزن ويصيبه الحزن، وربما يزيد ويتنامى في القلب فيتعب، ولا سيّما إذا ازداد فيه الحزن واشتد في قلبه.

والغم عندما ينظر الإنسان في يومه ووقته وأحواله ثم يجد بعض الأشياء التي في حياته فتسبب له ضجرًا فيغتم القلب.

وإذا فكر في مستقبله وما سيحدث وماذا سيكون وهل سيحصل كذا، إذا فكر في هذه الأمور ربما يصيبه هم.

هي أمراض لا تزول عن قلب الإنسان إلا بذكر الله، ولا يطمئن قلب الإنسان ولا يسلم منها إلا بالله وبذكره - تبارك وتعالى.

ومن المؤسف يا إخوان أن كثيرا من الناس عندما يدخل على قلبه هذه الأمور الهم والغم والحزن يتطلّب علاجها ويرجو شفاءها بدون تعويل أو رجوع إلى ذكر الله - تبارك وتعالى - أو اعتماد عليه؛ بل إن بعض الناس ليفعل أمورًا تزيده غمًا على غم، وهمًا على هم، وحزنًا على حزن، يفعلها - بزعمه - لتسلية قلبه وذهاب الحزن عن قلبه، وربما تعاطى أمورًا محرمة، وفعل أمورًا قبيحة بزعمه أنه يريد أن يطرد عن قلبه الهم أو يذهب عنه الغم، أو يُبعد عنه الحزن، وهيئات ثم هيئات أن يحصل للقلب سكونه وطمأننته بالقبيح والباطل والمحرم والضلال؛ بل لا يحصل طمأننته إلا بالرجوع إلى الله.

الهموم والغموم والأحزان تنتاب الناس بكثرة؛ لكن كيف تُعالج؟ انظر إلى كلام النبي - صلوات الله وسلامه عليه - في كيفية معالجة الإنسان للهم والغم والحزن، قال - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «ما أصاب عبدًا هم ولا حزن فقال: اللَّهُمَّ إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حُكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني،

وذهاب همي وغمي. إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله فرحاً»^(١) هكذا يقول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، يزول الهم والغم والحزن ويصبح بدل ذلك فرحاً، يصبح القلب فرحاً، هذا الفرح كيف يحصل للقلب؟ وكيف يتحقق للقلب؟ إذا كان الإنسان في الهم والغم والحزن وأتى بهذا الدعاء ألفاظاً مجردة وكلمات لا يتدبر معناها ولا يتأمل في مقتضاها ولا يحقق مضمونها ومقصودها لا يكون لها أثرها عليه؛ لأن هذه الأذكار والدعوات المباركة ليست مجرد ألفاظ يقولها الإنسان أو كلمات يتلفظ بها بدون مضمون ولا معنى؛ بل هي كلمات ينبغي على من يقولها أن يتعايش مع معناها، وأن يتدبر في دلالتها ومقتضاها، فعندما يصيب الإنسان الهم والحزن والغم فيأتي بهذا الدعاء ويأتي بهذا الذكر العظيم فيبدأ بالإنطراح بين يدي الله، واللجوء إلى الله، والتذلل له ﷺ.

يبدأ أول ما يبدأ وفي قلبه الغم ويريد أن يطرده فيقول:

«اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ» هذه البداية، اعتراف بأنه عبد الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، خالقه ورازقه وموجده والمتصرف في شؤونه هو الله، فهو عبد الله بمعنى مُعَبَّدٌ مَذَلَّلٌ لله، فالله الذي خلقه وأوجده، وعبد الله بمعنى عابد؛ أي مُمَثِّلٌ لأمر الله، مطيع له -جل وعلا-، قائم بما خلقه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- له، فيقول: «اللَّهُمَّ» يتوسل إليه بألوهيته ﷻ «اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابن عبدك، ابن أمتك» أنا عبدٌ لك، وآبائي إلى آدم عبيدٌ لك، فأنا ابن عبدٍ لك، وابن أمةٍ لك، بمعنى: أنا وآبائي وأجدادي إلى آدم وحواء كلنا عبيدٌ لك، أنت خالقنا، أنت ربنا، أنت مدبر شؤونا، لا رب لنا سواك.

«اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك» الناصية مقدمة الرأس، لا أملك من أمري شيئاً إلا بمشيئتك وقدرتك، إن شئت حياتي تحققت لي الحياة، وإن شئت سعادي تحققت لي السعادة، إن شئت صحتي وعافيتي تحققت لي الصحة والعافية، إن شئت غناي تحققت لي الغنى، أن شئت سوى ذلك من مرض أو فقر أو غير ذلك تحققت ذلك لي «ناصيتي بيدك» والأمر كله بقضائك وقدرك، فالأمر كما قيل:

وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن	ما شئتُ كان وإن لم أشأ
وفي العلم يجري الفتى والمسن	خلقت العباد على ما علمت
وهذا أعنت وذا لم تُعن	على ذا مننت وهذا خذلت
منهم قبيحٌ ومنهم حسن	فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيدٌ و

(١) مسند أحمد (١/٣٩١، ٤٥٢)، وابن حبان رقم (٢٣٧٢) «موارد»، والحاكم (١/٥٠٩)، وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٩٩).

(ناصيتي بيدك) أنت الرب السيد المدبر، وأنا عبد مملوك، لا حول ولا قوة إلا بك، كما في دعوة المسلمين التي هي كنز من كنوز الجنة (لا حول ولا قوة إلا بالله) يعني لا تحوّل من حالٍ إلى حالٍ ولا حصول قوة للعبد إلا بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، فيقول: «ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك» أيّ حكمٍ تحكم به عليّ يمضي لا يرده أحدٌ؛ لأن قضاء الله -جل وعلا- نافذ، لا رادّ لقضائه ولا مُعَقَّب لحُكْمِهِ ﷻ، «ماضٍ فيّ حكمك» ما تحكّمه فيّ بحُكْمِكَ الكونيّ القدريّ لا بدّ أن ينفذ (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن)، «ماضٍ فيّ حكمك عدلٌ في قضاؤك» فأنت عدلٌ يا الله، لا تظلم الناس مثقال ذرة، فكل قضاء تقضيه فهو قضاء عدلٍ وحُكْمٌ عدلٍ «عدلٌ فيّ قضاؤك».

ثم يبدأ يتوسل إلى الله بأعظم وسيلة، يتوسل إلى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بأسمائه الحسنی وصفاته العظيمة: (أسألك بكل اسم هو لك) يعني أسألك بجميع أسمائك يا الله، ومن المعلوم أن أعظم الوسائل التي يتوسل بها الإنسان إلى الله توسله إليه بأسمائه وصفاته، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ١٢١ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٢٢ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٣﴾ [الحشر].

فبدأ العبد يتوسل إلى الله بأسمائه الحسنی: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» أنا أسألك بكل أسمائك الحسنی، أتوسل إليك بكل أسمائك، بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك.

بدأ الطلب الآن: «أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي»، هذا السائل قلبه ماذا فيه؟ فيه همٌّ وحزنٌ أشغله، أتعبه، أمرضه، يريد أن يزول، فبدأ بهذه الوسائل ثم طلب من الله «أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي» بأن يصبح عامراً بالقرآن، منشغلاً بالقرآن، مقبلاً على القرآن، فإذا عمر القلب بالقرآن وانشغل بالقرآن لا يبقى فيه هم ولا غم ولا حزن؛ لأنه لم يصبح في القلب مكانٌ للهم ولا للغم ولا للحزن، لو أراد الهم والغم والحزن أن يدخل إلى قلبه ويذهب عنه الطمأنينة لا يجد مكاناً؛ لأنه عمّر وامتأ بالقرآن والذكر لله.

«أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري»، تأملوا هنا لمّا ذكر القلب قال: «ربيع قلبي» ولمّا ذكر الصدر قال: «نور صدري»، فذكر الربيع وذكر النور.

الربيع: النماء والنبات والحياة والزيادة، ومعلوم أن حياة جسم الإنسان وصلاحه واستقامته تنبع من القلب، كما أن النبات والأشجار نمائها وحياتها تنبع من أصلها، وإذا صلح القلب صلح الجسد، ولهذا قال: «أن تجعل القرآن ربيع قلبي»، اجعله ربيع قلبي أي اجعله سقيًا للقلب، اجعله لقلبي سقيًا مثل الماء الذي يُسقى به النبات، أرأيتم النبات إذا حُجب عنه الماء ومُنِع عنه القطر ماذا يحصل له؟ يموت ولا يبقى فيه حياة، وإذا سُقي بالماء وأُوصل إليه الماء دبَّت في النبات الحياة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٧﴾﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد]، عندما ترى النبات يصل إليه الماء فتدب فيه الحياة؛ القلب شأنه كذلك، ولهذا قال: «أن تجعل القرآن ربيع قلبي»، يعني اجعل القرآن سقيًا لقلبي تُمدُّ به حياة قلبي.

ولهذا سمى الله -تبارك وتعالى- الوحي روحاً في آيات كثيرة في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرٌ لِّلَّهِ فَلَا تَسْعَاجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ٢﴾ [النحل]، وفي الآية الأخرى قال الله -تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ سَمِيَ الْوَحْيُ رُوحًا، ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥١﴾ [الشورى]، فالقرآن روح يحيا به القلب، والسائل في هذا الحديث سأل الله -تبارك وتعالى- أن يعمر قلبه بالقرآن والذكر لله حتى يذهب عنه ما يجد «أن تجعل القرآن ربيع قلبي»، وبالنسبة للقلب قال: «ربيع قلبي»، ولما ذكر الصدر قال: «ونور صدري» أي اجعل في صدري نوراً بعنايتي ومحافظتي على القرآن الكريم، وهذا يدل على أن القرآن وذكر الله -تبارك وتعالى- يعمر القلب بالنور، يضيء القلب ويشرق ويتوقد بالنور والوضاءة والحسن والبهاء، «ونور صدري» يعني اجعل في صدري عامراً بالنور بالمحافظة على كتابك.

أيها الأخوة أرايتم قلباً ربيعته القرآن ونوره القرآن، القرآن ربيعته والقرآن نوره، من أين يجد الهم والغم والحزن إلى مثل هذا القلب سبيلاً؟! لكن ضَعْفُ الإيمان وضعف الصلة بالله -تبارك وتعالى- يقلل في الإنسان هذا الأمر، ويضعف فيه هذا الجانب حتى يجد الغم والهم والحزن إلى القلب سبيلاً، فإذا وجد الهم والغم والحزن إلى القلب سبيلاً ذهب عن القلب طمأنينته وأصبح ضَجِراً ملولاً مرتاباً متشككاً.. إلى غير ذلك.

«أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني» أي مُذهِباً لحزني، غاسِلاً له، مُبْعِداً له عن قلبي تماماً. «وجلاء حزني» أي يجلو ما في قلبي من حزن فلا يبقى له بقية، فإذا سأل العبد ربه -تبارك وتعالى- هذا السؤال، ولجأ إليه هذا اللجوء، واعتمد عليه هذا الاعتماد؛ لا يبقى في قلبه هم ولا غم ولا حزن، ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام-: «إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله فرحاً».

لما سمع الصحابة هذا الحديث سألوا النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله ألا نتعلمه؟ - أي هذا الدعاء - قال: «وما لكم لا تتعلمونه؟! - أو في ما معناه -، وما لكم لا تتعلمونه؟! دعاء عظيم وهو ذكر الله ﷻ ولجوء إليه سبحانه.

شاهدنا أيها الأخوة من هذا الحديث العظيم هو قيمة الذكر، وعظم أثره على القلب في تحقيق الطمأنينة، وتحقيق الراحة، والسكون، والأنس، وذهاب الهموم والغموم والأحزان.

وفي هذا المقام لا ينبغي لنا أن ننسى المصدر الذي يدخل من خلاله على القلب ما يفقده طمأنينته، فهناك مصدر أو أكثر إذا تسلل إلى القلب ووصل إليه أفقده الطمأنينة، ولهذا من أراد لقلبه الطمأنينة يحتاج إلى أن يعالج في نفسه هذا الجانب العظيم؛ وهو أن يحذر تمام الحذر من المصادر التي تذهب عن القلب الطمأنينة، والله -جل وعلا- أخبرنا بأن لنا عدوًّا، وهذا العدو يرانا ولا نراه، ويجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق، وأخبرنا أن هذا العدو شديد العداوة للإنسان، شديد الحرص على صده عن طاعة الله، شديد المكر والاحتيال، لديه مخططات كثيرة، وحيل متنوعة، وأساليب كثيرة للصد عن سبيل الله، وله تجارب واسعة وطويلة جداً، من زمن آدم وهو يشتغل في الناس، وقد دخل أقوام وأقوام وأقوام في القبور وقد حرّفهم تمام الانحراف عن دين الله وعن عبادة الله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، أقوام احتال عليهم بمكره، ودخل عليهم بدهائه، فصرفهم عما خلّقوا له، وأبعدهم عما أوجِدوا للقيام به وتحقيقه، فالله ﷻ حذّرنا من هذا العدو وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، وأخبر ﷻ أن هذا العدو يأتي للإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله؛ من جميع الجهات، ﴿ثُمَّ لَا تَبْقَى لَهُمْ مَنَافِعٌ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، هذا العدو بمخططاته الكثيرة وأساليبه العديدة متّجهٌ إلى قلب الإنسان ليصرفه عن ذكر الله -تبارك وتعالى-، فإذا انصرف الإنسان عن ذكر الله ذهب عنه الطمأنينة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، فالشيطان يتصل بقلب الإنسان ويدخل إلى قلبه إذا غفل عن ذكر الله، وكلّما

اشتدت الغفلة عن ذكر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- اشتد خنوس الشيطان ودخوله على قلب الإنسان، ولا سبيل للإنسان للتحصن من هذا العدو إلا بذكر الله -جل وعلا.

ولهذا جاء في الحديث الذي في «المسند» في قصة أمر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ليحيى بن زكريا عليه السلام، أمره بخمس كلمات، وأمره أن يأمر قومه بهنّ، قال في الخامسة منها، يحيى قال لقومه ممتثلاً أمر الله، قال لهم: «وَأْمُرْكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنْ مَثَلَ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ رَجُلٍ انْطَلَقَ خَلْفَهُ الْعَدُوُّ وَفَرَّ مِنْهُمْ حَتَّى إِذَا آوَى إِلَى حَصْنٍ حَصِينٍ فَلَمْ يَجِدْ عَدُوَّهُ إِلَيْهِ سَبِيلًا»^(١)، هَذَا مَثَلٌ لِلَّذِي يَذْكُرُ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، مَثَلُهُ مَثَلُ رَجُلٍ دَخَلَ فِي حَصْنٍ حَصِينٍ لَيْسَ لِلْعَدُوِّ مَدْخَلٌ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْحَصْنِ، هَذَا مَثَلُ الذَّاكِرِ لِلَّهِ، وَلِهَذَا سَمِيَ عَدَدُ مَنْ أَهَلَ الْعِلْمَ كَتَبَهُمُ الَّتِي أَلْفَتْ فِي الذِّكْرِ «الْحَصْنُ الْحَصِينُ» أَوْ «حَصْنُ الْمُسْلِمِ» أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ بِذِكْرِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يَحْصِنُ نَفْسَهُ، وَيَحْصِنُ قَلْبَهُ، وَيَحْصِنُ بَيْتَهُ، جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ وَلَمْ يَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: (أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ)، وَإِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ وَلَمْ يَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: (أَدْرَكْتُمُ الطَّعَامَ)^(٢) بِمَعْنَى أَنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَلْزِمُ ذِكْرَ اللَّهِ فِي دُخُولِهِ وَخُرُوجِهِ وَطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَرُكُوبِهِ وَنَزُولِهِ وَسَائِرَ أَحْوَالِهِ لَا يَجِدُ الشَّيْطَانَ إِلَى قَلْبِهِ سَبِيلًا، هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ مَا شِئْنَا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، فَإِذَنْ فَالْإِنْسَانُ عِنْدَمَا يَذْكُرُ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لَا يَبْقَى عِنْدَهُ الشَّيْطَانُ وَلَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا.

جاء في الحديث أن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَدْخُلُ بَيْتًا تَقْرَأُ فِيهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ»^(٣).

وجاء في الحديث أن «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي اللَّيْلِ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظًا وَلَا يَقْرِبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يَصْبِحَ»^(٤).

وجاء في الحديث أن الرجل إذا أتى أهله قال عند إتيانهم: «اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، ثُمَّ كُتِبَ لَهُ وَلَدٌ؛ لَا يَقْرِبُهُ شَيْطَانٌ»^(٥).

(١) سنن الترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، حديث رقم (٢٨٦٣).

(٢) مسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، حديث رقم (٢٠١٨).

(٣) سنن الترمذي: كتاب ثواب القرآن، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، حديث رقم (٢٨٧٧). قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. قَالَ الْأَلْبَانِيُّ: صَحِيحٌ.

(٤) البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً، حديث رقم (٢٣١١).

(٥) البخاري: كتاب النكاح، باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله، حديث رقم (٥١٦٥). مسلم: كتاب الرضاع، باب ما يستحب أن يقوله عند

الجماع، حديث رقم (١٤٣٤).

كل هذه تحصينات وتعوذات والتجاء واعتصام بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- من هذا العدو، وجاء في الحديث من قرأ الآيتين من سورة البقرة كفتاه، وأيضاً من الأذكار التي تحصّن المسلم من الشيطان الاستعاذة بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- من هذا العدو ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف]، ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [٩٧] وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ [٩٨] ﴿المؤمنون﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ١ مَلِكِ النَّاسِ ٢ إِلَهِ النَّاسِ ٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ٥ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ ٦﴾ [الناس]، قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [٤] قال: "هذا الشيطان، إذا غفل الإنسان عن ذكر الله وسوس، فإذا ذكر الإنسان الله خنس." أي ذهب وابتعد، ولهذا يحتاج الإنسان أن يذكر الله دائماً وأبداً حتى يخنس عدو الله وينطرد ويبتعد عن الإنسان.

أما أن يبقى الإنسان في غفلته وأن يستمر في إغراضه وأن يداوم على صدوده ومع ذلك كله لا يريد أن يصل إليه الشيطان وأن لا يخلص إليه هذا العدو؛ فهذا غير ممكن.

ولهذا يحتاج الإنسان أن يرتبط بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، وأن يعتمد على الله، وأن يعتصم بالله، وأن يكون دائماً لاجئاً لله، حتى لا يجد الشيطان إليه سبيلاً، ولا سبيل للشيطان على من كان معتصماً بالله ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران]، لا سبيل للشيطان عليه، كان -عليه الصلاة والسلام- يقول في دعائه في الصباح والمساء وعند النوم: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَه، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجْرَهُ إِلَى مُسْلِمٍ»، ^(١) تعوّد من الشر؛ مصدره ونتيجته، فقلوه: «شر نفسي وشر الشيطان وشره» هذا تعوّد من مصدر الشر؛ النفس الأمارة بالسوء والشيطان الرجيم، وآخر الحديث تعوّد بالله من نتيجة الشر «أن أقترِفَ على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم»، فهذا كله ذكر لله والتجاء إلى الله عَزَّ وَجَلَّ واحتماء به رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من مصادر الشر ونتائج الشر، فالشيطان يكتف حملاته ويوجّه رصاصه وسهامه إلى قلب الإنسان ويكتف الجهود حتى يذهب عن هذا القلب الذكر، فإذا ذهب عنه الذكر ذهب عنه حياته ومات، ولهذا لا يزال يحرص على أن يوسوس وينفث في القلب ويدخل وساوسه وشكوكه على القلب، يحرص على ذلك إلى أن يموت القلب، وإذا مات اتجه إلى غيره، لا يبقى معه إذا مات، انتهى، ابن عباس رضي الله عنهما قالوا له: تزعم اليهود أن الشيطان لا يأتيهم في صلاتهم. يعني

(١) سنن الترمذي: كتاب الدعوات، باب منه (١٤) حديث رقم (٣٣٩٢)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، قال الألباني: صحيح.

الواحد منهم في صلاته لا يُدخل عليه الشيطان أشياء وتفكيرات، فقال: وماذا يريد الشيطان بقلب ميت. القلب الميت انتهى.

لكن القلب الذي فيه حياة فيه إيمان يبدأ يداخله ويبدأ يحرص على أن يصدّه وأن يُدخل الوسواس، ولهذا يحتاج الإنسان أن يكون في جهادٍ دائمٍ، هو مستمر حتى يقيه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- من شر الشيطان، والله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت]. ومما ذكره العلماء في الذكر وفوائده في تحقيق طمأنينة القلب، ما قاله ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عندما عدّد فوائد الذكر في كتابه الذي بعنوان «الوابل الطيب»، هذا الكتاب ينبغي أن نقنّيه وأن نستفيد منه، ومعنى الوابل الطيب: المطر النافع، هذا الكتاب يميّز بتميّزات كثيرة، من أهمها: أنه أخذ يعدّد فوائد الذكر، الفوائد التي يجنيها الإنسان عندما يكون ذاكرًا لله، فذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أكثر من سبعين فائدة، فائدة تلو الفائدة، وأنت عندما تقرأ هذه الفوائد العظيمة يزداد إقبالك على ذكر الله ويعظم حرصك على القيام بذكره رَحِمَهُ اللَّهُ. من ضمن هذه الفوائد التي ذكرها قال: من فوائد الذكر: أنه يجمعُ المُفترِق ويفرّق المُجتمع. هذه فائدة من فوائد الذكر، أنه يجمعُ المُفترِق ويفرّق المُجتمع، (يجمعُ المُفترِق) هناك أشياء مفترقة أو متعدّدة القلب بحاجة إليها، وإذا اجتمعت في قلبه اطمأن، ولا يجمعها في قلبه إلا ذكر الله والصلة به والاعتماد عليه، فالذكر يجمع أمورًا مفترقة، عندما يذكر الإنسان ربه يطمئن القلب، تتحقّق له السعادة، يُقبل عليه الخير، ويشعر بالراحة، تجتمع فيه أشياء كانت متفرقة ليست موجودة فيه، جامعها الخير، يجتمع فيه الخير، (ويُفرّق المُجتمع) أي الذكر يفرّق المُجتمع، تجتمع في القلب إذا كان بعيدًا عن الذكر أمورًا كثيرة؛ همٌّ، غمٌّ، حزنٌ، شبهاتٌ، شهواتٌ.. أمورٌ كثيرةٌ تجتمع على القلب، فهذه الأمور لا يُفرّقها ولا يطردها ولا يُبعدُها عن القلب إلا ذكر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، فهو يجمع المُفترِق من الخير ويُفرّق المُجتمع من الشر في القلب، ولهذا يحتاج الإنسان إلى ذكر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ليحقق لنفسه هذا الربح العظيم والمغنم الكبير، وعندما يتحقّق للقلب هذه الطمأنينة وهذه الراحة بذكره الله فإن الجوارح كلها تطمئن وتُقبل إقبالًا عظيمًا على الخير، فقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّهُ، ألا وهي القلب»^(١).

فلهذا يحتاج الإنسان أن يحرص على أن يعمر قلبه بذكر الله، إذا عمر قلبه بذكر الله تذهب عنه كل

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (٥٢). مسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات،

حديث رقم (١٥٩٩).

الأمر الأخرى.

جاء رجل مرة إلى الحسن البصري قال: "أشكو إليك قسوة قلبي." أي أشعر بقلبي قسوة فماذا أفعل بها؟ قال: "أذبها بذكر الله." أذب هذه القسوة بذكر الله، يعني أكثر من ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ حتى تذوب هذه القسوة، وهذا معنى قول ابن القيم: "ذكر الله يُفَرِّقُ الْمُجْتَمِعَ." إذا اجتمع في القلب قسوة، اجتمع في القلب غِلظة، شهوة، شبهة، غم، حزن، حسد، حقد، ضغينة، غل... إلى غير ذلك، كل هذه الأمور تُتعب القلب إذا وُجدت فيه، فإذا اجتمعت ما يُفَرِّقها إلا الذكر، فإذا انشغل الإنسان بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ وعمر قلبه بذكره -تبارك وتعالى- لا يبقى لهذه الأمور بقية، بل إنها تذهب وتنصرف وتتفرق عن الإنسان.

لعلنا نختم بفائدة عظيمة من فوائد الذكر: يقول الله تعالى في حديثه القدسي: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»،^(١) وهذه -أيها الأخوة- معية خاصة من الله -تبارك وتعالى- لمن كان ذاكرًا لله -تبارك وتعالى-، وهناك معية عامة بالعلم والاطلاع والإحاطة، إليها إشارة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وهناك معية خاصة اختص بها بعض الخلق يكون معهم -تبارك وتعالى- بحفظه ورعايته وعنايته وتوفيقه وتسديده، وهذه المعية الخاصة لا ينالها العبد إلا بأمور، من أعظمها ذكر الله -تبارك وتعالى- ولهذا قال: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»، وإذا كان الله مع العبد حياته كلها إلى خير وإلى سعادة ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، إذا كان الله مع العبد لا يصل إليه شر، ويكون محفوظًا؛ محفوظًا بالخير، وتتحقق له السعادة والمغنم والربح في الدنيا والآخرة، لأن الله تبارك وتعالى معه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

هذه تأملات أو حديث حول قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، والحديث في هذا الباب واسع وطويل، لكن نسأل الله -جل وعلا- بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ونسأله -جل وعلا- بكل اسم هو له، سمى به نفسه، أو أنزله في كتابه، أو علمه أحدًا من خلقه، أو استأثر به في علم الغيب عنده أن يعمر قلوبنا وقلوبكم بذكره تَعَالَى، وأن يصلح لنا جميعنا شأننا كله.

اللَّهُمَّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا

(١) رواه البخاري معلقًا في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾، قال ابن حجر معلقًا عليه: هذا طرف من حديث أخرجه أحمد والبخاري في خلق أفعال العباد والطبراني... سنن ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الذكر، حديث رقم (٣٧٩٢)، قال الألباني: صحيح.

التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر.

اللَّهُمَّ إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا.

اللَّهُمَّ إنا نعوذ بك من شر الشيطان وشركه، ونعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، ونسألك

أن تهدينا إليك صراطاً مستقيماً، وأن توفقنا لكل خير، وأن تجعلنا من عبادك المتقين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه

أجمعين.

[أسئلة المحاضرة]

السؤال الأول: [السؤال غير مسموع].

الجواب: هذه أبيات فيها فوائد الذكر، ناظمها الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمته الله، يقول في هذه

الآيات:

وكن ذاكراً لله في كل حالة	فليس لذكر الله وقت مقيّد
فذكر إله العرش سرّاً ومعلناً	يزيل الشقاء والهم عنك ويطرّد
ويجلب للخيرات ديناً وآجلاً	وإن يأتك الوسواس يوماً يشرد
فقد أخبر المختار يوماً لصحبه	بأن كثير الذّكر في السبق مفرد
ووصى معاذاً يستعين إلهه	على ذكره والشّكر بالحسن يعبد
وأوصى لشخص قد أتى لنصيحة	وقد كان في حمل الشرائع يجهد
بأن لا يزال رطباً لسانك هذه	تُعين على كل الأمور وتُسعد
وأخبر أن الذكر غرس لأهله	بجنات عدن والمساكن تمهد
وأخبر أن الله يذكّر عبده	ومعه على كل الأمور يسدد
وأخبر أن الذكر يبقّى بجنة	وينقطع التكليف حين يُخلّدوا
ولولم يكن في ذكره غير أنه	طريق إلى حب الإله ومرشد
وينهى الفتى عن غيبة ونميمة	وعن كلّ قول للديانة مفسد
لكان لنا حظ عظيم ورغبة	بكثرة ذكر الله نعم الموحّد
ولكننا من جهلنا قلّ ذكرنا	كما قلّ منّا للإله التّعبد

هذه أبيات عظيمة جداً فيها ذكر لفوائد وفيها عدّ لفوائد الذكر، وما ذكره رحمه الله في هذه الآيات كلّها

عليه دلالة في كتاب الله وسنة نبيه صلّى الله عليه وآله.

والله تعالى أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

السؤال الثاني: ما هي الكتب التي تنصحون بقراءتها وهي الخاصة بالأذكار والأدعية الخالية من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ولو تذكرون أحسن الطبعات.

الجواب: هناك ما يتعلق بالكتب المؤلفة في الأذكار كثيرة جداً، ومتعددة، وهناك كتب في الأذكار لأهل الأهواء يؤلفونها ويجمعون فيها أذكارا من قبل أنفسهم، أو أذكارا يعتمدون فيها على أحاديث موضوعة مكذوبة على النبي عليه الصلاة والسلام، فهذه الأذكار لا يجوز للمسلم أن يشغل نفسه بها، وإنما نذكر الله بما كان يذكره به رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولهذا يتخير المسلم الكتب التي لأهل العلم المعترين والذين من لهم عناية بحديث رسول الله ﷺ فيفيد منها.

ولله الحمد هناك كتب كثيرة جداً في هذا الباب مطبوعة ومتداولة يمكن أن يستفيد منها المسلم، مثل الكتاب الذي سميته «الوابل الصيب» لابن القيم رحمه الله وكتاب شيخه «الكلم الطيب» وأيضاً «تحفة الأخيار» للشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، هناك كتب كثيرة في الذكر والدعاء ينتقى فيها الأحاديث الثابتة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام فيستفيد منها طالب العلم.

لكن الكتب التي لا تؤسس على السنة ولا يلتفت فيها إلى هدي النبي عليه الصلاة والسلام ولا سيما تلك الكتب التي فيها توظيف أعمالٍ وتحديد أوقات وتعيين أذكار لا مستند في شيء منها إلى ما في كتاب الله أو سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

وأحيانا يروج بعض العوام أوراقاً فيها أدعية معينة أو أذكار معينة من قالها انتفى عنه كذا وحصل له كذا وتعجنه كذا، أشياء يقولونها لا مستند لها، وكل ذلك لا يجوز للمسلم أن يلتفت إليه، أو أن يعتمد على شيء منه، ومثل هذه الأمور لا يعتمد فيها إلا على أهل العلم الذين لهم ارتباط وعناية وفهم بسنة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

السؤال الثالث: هل إذا قلت هذا الدعاء والذي هو دعاء الهم مرة واحدة ووجد في نفسي ضيق، هل لي أن أكرره؟ وهل ثبت من السنة المطهرة يقال في الصباح ويقال في المساء؟

الجواب: هذا الدعاء ليس من أذكار الصباح والمساء وإنما هو ذكر يأتي به الإنسان ويذهب عنه بإذن الله تبارك وتعالى ما يجد في نفسه من هم أو غم أو حزن فالإنسان يدعو به.

ومن الهم - كما أشرت - عندما يدعو به؛ من الهم أن يتأمل في معناه وأن يتدبر في دلالاته وأن يقف مع مقاصده حتى يكون له أثر بالغ عليه فن تكرر عليه الهم أو الغم يكرر الدعاء فهو لجوء إلى الله ﷻ وانكسار بين يديه وإلحاح عليه وسؤال له سبحانه وتعالى فيكرر الدعاء إذا تكرر الهم والغم.

السؤال الرابع: هل حديث «لا يرد القدر إلا الدعاء»^(١) حديث صحيح وهل القدر يرد؟

الجواب: الحديث ثابت عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «لا يرد القدر إلا الدعاء»، والدعاء من القدر ليس أمراً خارجاً عن قدر الله؛ بل دعاء العبد ربه هو أيضاً أمراً مقدر، وبهذا يتضح لنا قوله: «لا يرد القدر إلا الدعاء»، فالدعاء هو أمر من الأمور الداخلة في القدر ومن جملة الأمور المقدرة، فقوله: «لا يرد القدر إلا الدعاء» معنى ذلك أنه قُدِّرَ على الإنسان أن يكون له كذا أو يصيبه كذا وأنه يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ بدعاء كذا فينصرف عنه الأمر وكل ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَضَرٌّ ﴿٥٣﴾ [القمر].

السؤال الخامس: حديث «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. في اليوم مائة مرة كان له حرز من الشيطان»^(٢) المائة مرة في اليوم كله أو في الصباح مائة وفي المساء مائة؟

الجواب: هو الذي أذكر في الحديث أنه «من قال في اليوم مائة مرة»، والحديث الآخر الذي فيه مائة في الصباح والمساء «من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده. مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأكبر مما جاء به إلا رجل عمل مثل ما عمل أو زاد عليه»^(٣) فهذا ثابت، هذا يقال في الصباح سبحان الله وبحمده مائة مرة، ويقال في المساء سبحان الله وبحمده مائة مرة، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فهذه تقال في اليوم مائة مرة.

السؤال السادس: هذا يسأل عن كتاب بعنوان «فقه الأدعية والأذكار»، يقول: هل أصدر صاحبه القسم الثاني منه؟

الجواب: الذي أعرفه أن القسم الثاني الآن قُدِّمَ للطبع، نسأل الله جل وعلا أن ييسر طبعه للاستفادة منه.

السؤال السابع: ما معنى ذكر أهل في القلب؟

الجواب: ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الوابل الصيب» ذكر أن الذكر نوعين ذكر بالقلب وذكر باللسان. وذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بتعظيمه ومحبته وذكر عظمته وجلاله وذكر أسمائه وصفاته وذكر الله.

(١) سنن الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء لا يرد الدعاء إلا القضاء، حديث رقم (٢١٣٩)، قال الألباني: حسن.

(٢) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، حديث رقم (٢٦٩١).

(٣) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، حديث رقم (٢٦٩٢).

باللسان بالتسبيح والتحميد والتهليل وتلاوة القرآن كل ذلك ذكر الله.

فالذكر يكون بالقلب ويكون باللسان، وأكمل أحوال اللسان في ذكره الله تعالى عندما يجمع في ذكره

الله بين ذكر القلب وذكر اللسان.

والله تعالى أعلم صلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



الفهرس

المقدمة.....	٢
فوائد الذكر بعامة.....	٢
أقسام قلوب الناس.....	٣
القلب السليم.....	٣
القلب الميت.....	٤
القلب الذي بيه حياة ومرض.....	٤
معنى الحزن والغم والهم.....	٥
كيف نعالج الهموم والغموم والأحزان؟.....	٥
الحذر من الشيطان فإنه يذهب طمأنينة القلب.....	٩
الخاتمة: يحصل للذاكر معية خاصة من ربه.....	١٣
أسئلة المحاضرة.....	١٤
السؤال الأول: نرجو أن تعدد لا فوائد الذكر.....	١٤
السؤال الثاني: ما هي الكتب التي تنصحون بقراءتها والخاصة بالذكر.....	١٥
السؤال الثالث: هل لي تكرار دعاء ذهاب الهم حتى يذهب عني؟.....	١٥
السؤال الرابع: هل الحديث ((لا يرد القدر إلا الدعاء)) صحيح، وما معناه؟.....	١٦
السؤال الخامس: حديث ((من قال : لا إله إلا الله... في اليوم مائة مرة)) في اليوم أو في الصباح والمساء؟.....	١٦
السؤال السادس: هل صدر الجزء الثاني من كتاب فقه الأدعية والذكار؟.....	١٦
السؤال السابع: ما معنى ذكر أهل في القلب؟.....	١٦

